تاريخ أدب الأطفال في الجزائر

د. محمد عبد الهادي
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

يتناول هذا الموضوع تتبع نشأة أدب الأطفال عالميا وعربيا عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص، متناولين أهمية الكتابة للأطفال وخصوصياتها، وتعرضنا فيه أيضا إلى أهمية إيجاد منهجية علمية عربية في مسألة التأليف للطفل، لكي نبتعد عن الاجترار و التكرار فيما ينتج إلى الطفل سواء على المستوى الأدبي أو الثقافي أو الإنتاج السمعي البصري، ومن ثم تحدثنا عن نشأة أدب الأطفال في الجزائر من خلال مجموعة من الآراء المختلفة لمبدعين جزائريين.

إن التتبع التاريخي لأية ظاهرة معرفية أمر مهم لاكتشاف تجلياتها، والعوامل التي ساعدت على نشوءها وإرهاصاتها الأولى، والتعرف كذلك على الدوافع والأهداف والمنطلقات ويعتبر التأسيس التاريخي ضرورة لمن يود أن يبحث في أرض شبه بكر كأرض أدب الأطفال حسب" زوليخة أبو ريشة"، وهذا ما فعلته معظم الموسوعات والدراسات التي تناولت أدب الأطفال ذلك أن التتبع التاريخي ليس ضرورة حتمية لرصد تطور الموضوع لمن يهمه هذا التطور فحسب، بل يمكنه أن يكون معطا في صورة، تجارب الماضي النافعة بعد انتقاءها وتنقيتها وتعديلها بما يناسب روح العصر المعلوماتي وحاجته ومشكلاته. إن منهجا يقيم توازنا بين الحديث والقديم هو منهج يصون روح المعاصرة، ويعمل بهديها، ومنهج يحتاج أن يأخذ به ويرعاه كل من يتأرجح بين ذوبان من الآخرين أو يتقوقع حول الذات، وهي حالة ليست ببعيدة عن الواقع الثقافي العربي الذي يتداول أدب الأطفال[1].

ويؤكد واقع الحال من خلال جل الآراء أن أدب الأطفال تاريخه حديث بعض الشيء" ولم يكن للأطفال أدب خاص بهم بالمعنى الصحيح قبل القرن العشرين، ولكن إرهاصات واضحة كانت قد سبقت ذلك، ومهدت لأدب الأطفال أن يكون ظاهرة فنية كبيرة"[2].

والأمر ذاته عند " مالك إبراهيم الأحمد" الذي أكد على أن أدب الأطفال حديث جدا، بمقياس تاريخ الأدب عموما، ولم ينشأ في صيغته المقروءة المعاصرة، إلا منذ قرنين من الزمن تقريبا ولا يعني ذلك أنه كان منعدما، لكن الكتابة الأدبية المتخصصة بالأطفال حديثة جدا وبلا منها وجدت الحكايات المنقولة شفاهة عبر الأجيال، وعلى لسان الأجداد والجدات"[3].

أدب الأطفال عالميا:

لقد ظهرت العناية والاهتمام بأدب الأطفال في الفرنسيين الماضيين في أوربا وأمريكا وكثير من بلدان العالم بشكل واضح، ففي فرنسا التي كانت في طليعة الدول الأوربية في العلوم والثقافة بدأ أدب الأطفال في الظهور في أواخر القرن السابع عشر، عندما ظهرت مجموعة حكايات" ماما وزة" عام 1697م، وهي تضم عددا من القصص منها " سندريلا" و "الجميلة النائمة"، أما في انجلترا فلقد كانت الكتابات للأطفال ممزوجة بالنصح والإرشاد وتحديد الواجبات والاهتمام بالتهذيب والإصلاح، أكثر من اهتمامها بإيقاظ عقل الطفل وإثارة اهتماماته. ونشرت عدد من الكتب منها " التحدث للأطفال" وظهرت كذلك كتب الأطفال الدينية التي يميل إلى التخويف والترهيب والمواعظ والحكم، وهذا النوع من الكتب كان غير مرغوبا، وحاربه الفلاسفة آنذاك، أما في ألمانيا فقد بدأ ظهور كتب الأطفال في عام 1812م على يد الأخوين يعقوب ووليم جريم وأهمها كتاب " حكايات الأطفال والبيوت" وترجمة لعدة لغات، وأهم ما تميزت به هذه الحكايات أنها مدونة دون إضافات ومأخوذة من الواقع الشعبي، وظهر أدب الأطفال كذلك في كل من الدانمرك وروسيا وإيطاليا واليابان[4]، وتعتبر بريطانيا من أكثر الدول الأوربية التي تمتلك تقاليد رصينة في رعاية أدب الأطفال وتطويره على عكس ذلك في بلد مثل السويد وأسبانيا، أما قارتي آسيا وإفريقيا بمساحتها الشاسعة وكثافة سكانها فما هما إلا سوق تجاري لمختلف اللغات، ولمختلف الأفكار والمعارف المطروحة في اللغة الأم أو فيما يترجم من قصص الأطفال وأدبهم، أما "د.شعبان خليفة" فأكد على أن" القرن الثامن عشر شهد إدراكا متزايدا بضرورة الفصل بين كتب الكبار وكتب الصغار، وضرورة وجود إنتاج فكري بخصوص يستمتع به الأطفال في المحتوى والأسلوب عما يوجه للكبار"[5].

وتخصص العديد من الدول جوائز في مجال أدب الأطفال، ومن هذه الدول أسبانيا، أستراليا، ألمانيا، أمريكا، إيطاليا، سنغافورة، سويسرا، المكسيك، النمسا، كوبا.

أدب الأطفال عربيا:

بعد أن قطع الغرب شوطا في تطوير أدب الأطفال والاهتمام به نما وعينا وارتقى وبدأنا ندرك أهمية الرعاية النفسية والتربوية والإبداعية للطفل، وربما يفسر لنا ذلك ما يقال من أن أدب الأطفال قديم جديد في أدبنا، قديم بالنظر إلى ما كان موجودا في الماضي من هدهدات وترنيمات وحكايات، وجديد عندما أصبح شكلا من أشكال التعبير له أصوله وأسسه ومبادئه وأنواعه وغاياته واتجاهاته التي تجلت فيما خصص له من كتب ومجلات وحلقات دراسية ومعاهد علمية ومكتبات تهتم بأبحاثه ودراساته وتخرج الباحثين المختصين فيه.

وبعد مراجعتنا لواقع أدب الأطفال في الغرب، تختمر في أذهاننا مجموعة من الأسئلة أهما واقع أدب الأطفال في بلادنا، وما أسباب هذا التأخر عن بقية الأمم في الاهتمام بأدب الأطفال وتحديثه÷ وما أسباب الفجوة بين الطفل العربي والكتاب وأسباب عزوفه عن القراءة، وإن كان العزوف عن القراءة شمل كل فئات المجتمع وليس الطفل وحدة.

عند طرحنا لهذه الأسئلة والسعي الجاد للإجابة عنها، نلح على ضرورة تنمية ثقافة الطفل ونشر أدبه وبناء المكتبات المخصصة له لكي يستفيدوا منها من خلال خدمات متميزة ومتنوعة تلبي احتياجاتهم، والمطلع الخصيص يجد لأدب الأطفال بذورا وملام عند القدماء سواء أكان ذلك منثورا أم منظوما، ومن الممكن في هذا الباب أن يغد فن المقامات كمقامات" بديع الزمان الهمذاني" 358هـ، ومقامات " الحديدي" 446 هـ ، ومقامات" جار الله الزمخشري" 467هـ ، لأن الغرض الأساسي لإنشاء المقامات تعليم الناشئة العربية في ذلك الوقت ويقرونها لما تمتاز به من أسلوب قصص جذاب سهل التناول يستهوي الأطفال والناشئة ويثري لغتهم، كما أنها ذات مضمون تربوي وأخلاقي تخص على الصدق والإخلاص والأمانة، ومساعدة المحتاج والتعاون في سبيل الخير في سبيل المصلحة العامة، وتحذر من الكذب والخيانة والغش والخداع والأنانية[6].

وطرح" مالك إبراهيم الأحمد" رأيا مخالفا مؤكدا خلو الأدب العربي من أدب الأطفال المكتوب، ويلقى هذا الأمر ميلا شديدا في نفس الكثير من الباحثين والمختصين في أن"

عدم الاهتمام بأدب الأطفال أو الغفلة عنه في مجتمعنا العربي ليس مصادفة أو حادثا وقتيا، بل هو نتيجة طبيعية لعدم اهتمام لغتنا العربية في تاريخها الطويل بهذا النوع من الأدب، فالطفل العربي مع سوء حظه من هذا طيلة قرون طويلة لأن أدب الكبار قد استأثر على إنتاجنا التراثي كله، وبجهود المدونين الذين لم يلتفتوا إلى أدب الأطفال"[7]، والأمر نفسه أكده" عبد الباسط بدر" في تأكيده أن بعض النصوص المتناثرة في تراثنا العربي القديم لا يمثل عن التمحيص جذورا لأدب الأطفال المعاصر[8].

ولقد كان للترجمة دورا أساسيا في ظهور أدب الأطفال في العالم العربي في العصر الحديث، وكان محمد عثمان جلال 1838م 1898م، من أوائل الذين ترجموا بتصرف يقرب من الاقتباس لافونتين في ديوانه " العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ" في مئتي حكاية منظومة، وقد أضاف بتصرفه في الترجمة بعض الحكايات العربية[9]، ويعد " أحمد شوقي" رائدا في مجال الكتابة للأطفال، وخصص جزءا من ديوانه لأشعار الأطفال، وكتب معظمها بلسان الطير والحيوان مما أضفى عليه رونقا وإقبالا من الأطفال عليه، ولعل أشهر هذه الأشعار قصة الثعلب والديك:

برز الثعلب يوما	في ثياب الواعظيا
فمشى في الأرض يهدي	ويسب الماكرينا
ويقول: الحمد لله	إله العالمين[10]

أحمد شوقي هو أول من خاطب الطفل في العصر الحديث بمجموعة شعرية، وهو يعلم جيدا أن للشعر مكانة خاصة في نفوس الأطفال، وهو جزء ذا مكانة مرموقة في تاريخ وتراث العرب، وقد وجه أحمد شوقي الدعوة لجميع الأدباء والشعراء ليتعاونوا في إيجاد أدب الأطفال[11]. والطرح نفسه أكده" سليمان العيسي" في ريادة " أحمد شوقي" في الكتابة للأطفال قائلا« ثم تأتينا قصائد شوقي رحمة الله للأطفال فإذا هو يدق الباب الموصود ويدنو من العالم الذي أهمل حقبا طويلة، أن له فضل الريادة فضل المحاولة الأولى، ولكن المحاولة تظل صلبة وعرة، يودها الجفاف في معظم الأحيان، ولكنه كان الرائد من بين شعرائنا المرموقين الذين أدركوا خطر هذا الموضوع وجلاله"[12]. وبرزت أسماء أخرى في سماء أدب الأطفال في العالم العربي منهم " كامل كيلاني" 1887م–1959م، وعده البعض رائدا في

أدب الأطفال تأليفا وترجمة. وهذا شاعر القطرية " خليل مطران" يؤكد ريادة كامل كيلاني في إنشاء مكتبة الأطفال القصصية " لو لم يكن للأستاذ "كيلاني" إلا أنه المبتكر في وضع مكتبة الأطفال بلسان الناطقين بالضاد فكفاه فخرا بها، لرفع ذكره، وما أحسن به إلى قومه وعصره"[13]،وفي العراق قامت نهضة أدبية للطفل في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي عندما نظم" معروف الرصافي" منظومات شعرية خفيفة في المجلات المدرسية مثل مجلة الفتوة البغدادية[14]. أما أدب الأطفال في فلسطين فله خصوصية لمحاولة الاحتلال تمييع الشخصية الوطنية والقومية وتهديد الهوية الحضارية للفلسطينين فلئن كان الطفل العربي بشكل عام يواجه في جميع أنحاء الوطن العربي مشكلة انتشار الأدب العربي للأطفال مما لهذا الأدب من وسائل تحقق له التفوق في الشكل وسرعة الانتشار، فإن العربي في فلسطين يواجه هذه الجملة على نحو مكثف ومركز ومخطط، وفي مواجهة هذا الغزو لأدب الأطفال يصبح من الضروري أن يتحاشى أدب الأطفال العربي الوقوع في منزلق التشبه بالمعتدي أو الخضوع له، وعلى أدب الأطفال في فلسطين أن يتمسك بالقيم الأساسية الصحيحة، وأن يحرص على تغذية النشء بما يمكنهم من المقاومة والتكافل والانتماء[15]، وظهرت أسماء أخرى في العالم العربي مثل زكريا تامر من سوريا، راضي عبد الهادي وعيسى الناعوري وإبراهيم البوراشي وإسعاف النشاشبي، وإسحاق الحسيني من فلسطين والأردن، وكارمن معلوف من لبنان، أما في دول الخليج العربي فكان الاهتمام بأدب الأطفال في السبعينيات، وامتازت انطلاقتهم بالجدية، ضمت تخطيط علمي ومنهجي، معتمدا على موارد مالية جعلت الإنتاج الأدبي للطفل موزعا بين القصص والإذاعة والتلفزيون[16]، وبالنسبة لدولة الإمارات العربية المتحدة فاهتمامها بأدب الأطفال مردة إلى إيمانها العميق بأهمية ترسيخ القيم في بناء شخصية الطفل الذي سيغدو رجل المستقبل، إلا أن أدب الأطفال في الإمارات مازال يتلمس أماكن الضوء، ويسعى بكد ومثابرة إلى تعميق مجراه في هذا الاتجاه الذي يتسم بالحساسية، ويتطلب الكثير من الحذر والتأني، لما له من تأثيرات سلبية في جيل المستقبل[17].

ومن الكتاب المتميز في عالمنا العربي المعاصر نجد أحمد نجيب، سليمان العيسى، عبد التواب يوسف...الخ.

رغم هذا كله يعاني أدب الأطفال العربي من نقص في الإنتاج وقصور في المعالجة، وإلى جانب ذلك يفتقد العناصر الأساسية التي تؤهله لإشباع حاجة أطفال اليوم[18]. ولعل الذي أثر على تقدم وتطوير أدب الأطفال في عالمنا العربي هو إتباعه الأسلوب التقليدي في الطرح، وسيرة وفق منهج الكتابات القديمة نفسها، مع أن أساليب التربية والحياة الاجتماعية عموما تختلف من جيل لآخر، وهي في تطور مستمر ولا شك في أن الكتبة الحالية في وطننا العربي قد أثرت بشكل مباشر في الأطفال حتى أن كثير من المفردات يرددها أولئك معبرين في ذلك عن عدم إشباع حاجاتهم في هذا المجال، إن الكتابة للأطفال ليست بالأمر السهل ويمكننا حصر تلك الكتابات المتداولة جميعها في جملة من الأنواع:

النوع الأول:

من الكتابة ما يغرق في الماضي لجهة أنه يعيد الكتابات السابقة بالأسلوب نفسه وينسخه مكررة.

النوع الثاني:

من الكتابة للأطفال ما يغرق في تقليد ما يطرحه الآخر مدعيا محاولات انقاد الطفل من التراكمات السلبية للثقافة العربية.

النوع الثالث:

من الكتابة ما يعتمد على شهرة الكتاب أنفسهم في ميادين أخرى من الكتابة لا علاقة لها بالطفل، إذ ند كبار الكتاب مثلا " يتطفلون على علام الصغار، ويرفضون أنفسهم عله قسرا، بل قد يجدون استحسانا لدى النقاد، في وقت يرفضون من طرف الأطفال لدن لا أحد يحاسب، ثم يحاسب من؟.

النوع الرابع:

من الكتابة تحدد طبيعة المسؤولية داخل المجلات ودور النشر فالموقع والمكانة والوظيفة هي التي تجعل منها كاتبا للطفل، وعلينا أن نقبل ما دامت المجلات ودور النشر ترى أن ذلك هو أفيد للطفل[19].

قالت العرب الأدب مرآة المجتمع، ويعكس تاريخ أدب الأطفال حقيقة أن المضمون الاجتماعي والسياسي يفرض نفسه على الموضوعات التي طرحت وتطرح في الأعمال الموجهة إليهم، والتي تعكس حاجات الطفل للنمو العقلي والذهني والمعرفي الصحيح، وهذه

الحاجات التي تشكل محور الانطلاق لما كتب ويكتب في مؤلفات الأطفال الحديثة في العالم النـامي، بـدأت تظهـر فـي أدبيـات الأطفـال العـرب لتصـبح ذات صـلة وثيقـة بالمضـمون الاجتماعي والسياسي .

ويتأكد ما طرحناه سابقا عند " عبد التواب يوسف" وهو من المختصين في أدب الأطفال في العالم العرب، أن " أدب الأطفال عندنا مازال يحبو لم يستطع حتى الآن أن يتعدى طور البداية، ولم يخرج من حكايات البط والدجاج والساحرة الشريرة، ولم تفلت بعد من دائرة القصص، واعتقد أن تخلف أدب الأطفال عندنا يرجع إلى اعتبار الأديب لا تريد شهرته المادية والمعنوية إلا بالكتابة للكبار فقط، بينما أدب الأطفال في الغرب يضع في مخيلته دائما أن على الأدباء شهرة وثقافة وعلما يشعر بأنه محتقر حينما يكتب للأطفال دون الكبار، بالإضافة إلى أن وسائل إعلام الدول العربية تجعل برامج الأطفال تحت تصرف بلهاء غير متخصصين بل ويمنعون دائما المتخصصين في كتابة أدب الطفل من الكتابة لوسائل الإعلام"[20] .

ومرد معاناتنا في ضعف أدب الأطفال عندنا هو جرأة البعض على اقتحام هذا المجال الأدبي دون الوسائل الفنية والمعرفية المطلوبة، ويمكننا القول إن مفهوم الكتابة للطفل في الوطن العربي مازال غير واضح لدى الأدباء أنفسهم، بل لدى الأدباء والقيمين على مصائر أطفالنا، ذلك أن الأدباء الكبار: الذين نعترف لهم بالمقدرة والموهبة الأدبية في كتاباتهم السابقة للكبار ونتيجة لظروف سياسية واجتماعية خاصة توجهوا بالكتابة للأطفال، إما عن إيمان حقيقي بالطفولة، أو لإظهار تعاطفهم مع الطفولة أو لإظهار مقدرتهم على الكتابة للطفولة وهذا مسايرة لاهتمام الدول والأمم بالطفولة وحمايتها وتطورها، أما النوع الثاني فينحصر في فئة تطفلوا على أدب الأطفال بدون علم ولا معرفة ولم يجدوا من يردهم فتطاولوا،ومن أسباب هذا التطاول تكالب بعض دور النشر على الربح السريع، والبحث عن المؤلف ذو الثمن المنخفض، وفراغ الساحة الأدبية من النقد البناء والجاد ترك الأمور تسير في اتجاه الغائية والسطحية. فكتب كل من هب ودب للطفل وتساوى الغث والسمين[21] ، والنظرة النقدية نفسها لأدب الطفل في عالمنا العربي يؤكدها " د.عبد العزيز المقالح " قائلا: " إذا كان أدب الأطفال قبل سنوات يمر بأزمة وجود، قد أصبح الآن يمر بأزمة جودة أو بعبارة أدق صارت أزمة الكم التي يعاني منها أدب الأطفال أزمة في الكيف فقد توسعت الكتابة للأطفال وكثر هواتها والمستفيدون منها، لكن معظم هذه الكتابات تتم في غيبة من

النقد وفي غيبة الرقابة الوطنية، فيجئ ما ينتج فيها أدبا متخلف المحتوى معاد للتحولات الاجتماعية والنزوع إلى التطور، الذي قل أن يخلو منه قطر في مشرق الوطن العربي ومغربه، بالإضافة إلى أن كتاب الأطفال في الأقطار العربية يكتبون هذا الأدب باللهجة العامية مما يجعل منهم ما يكتب بهذه الجهات يؤسف له حقا، ولا يمكن حل هذا الأشكال اللغوي إلا من خلال خطة قومية، فالقارئ الصغير اليوم هو القارئ الكبير غدا، وغرس عادة القراءة في الشعوب تبدأ من هنا من الأطفال، واعتبرت البعض أن المكتبة العربية من أكثر مكتبات العالم نقصا، فيما يتعلق بأدب الأطفال ومن أكثرها افتقارا إلى القصة المناسبة فكرا وأسلوبا[22] .

والسبب الرئيسي لتأخر أدب الأطفال في العالم العربي حسب" تغريد المقدسي" هو " عدم وجود استراتيجية على المدى البعيد تضمن لهذا الأدب القيام بوظائفه التربوية والتثقيفية والترفيهية على مستوى العالم العربي ككل، وتضمن له حضورا على المستوى الدولي الذي يمكننا من التفاعل مع الحضارات الأخرى وإغنائها، وهو أمر يتطلب على المستوى الدولي كان من المهم العمل بالاشتراك مع الدول والمنظمات والهيئات الدولية المهتمة لإنتاج ونشر ما هو ثقافي وتراثي وتاريخي عربي على الخصوص، وترجمة ما هو معاصر وضروري من الإنتاج الأجنبي".

وتحث الباحثون عن الأخطار التي تعرض لها أدب الأطفال في العالم العربي وأوجزوها في نقاط عدة:

الأول: يتمثل في الكتب التي تحد من خيال الطفل وتلصقه بالوقائع التاريخية المقررة، أما الثاني: فهو يتمثل في أجهزة الإعلام العربي التي تتيح للخيال أن يشطح ويجمع دون رقيب ولا ضابط[23] ، والثالث: إشكالية الكتابة العشوائية غير المحددة لسن معينة وإشكالية فقدان الطفل وضعف الصياغة الفنية، وعدم التفريق بين الأدب الذي يتحدث عن الأطفال والأدب الذي يخاطبهم كقراء[24] ، إلا أن" إبراهيم الخطيب" له رأي مخالف في مسألة التاريخ لأدب الأطفال في العالم العربي ووضعيته قائلا " الذين يهتمون الآن بأدب الأطفال عندنا، إنما يسيرون في طريق لا تاريخ له"[25] .

ويمكننا اختصار واقع أدب الأطفال في العالم العربي من خلال نقاط عدة:

1- غياب ما يصطلح عليه " أدب الطفل "

2- طغيان نظرية أن الطفل رجل صغير فيقدم له من الأدب مالا يتناسب مع عقله وسنه.
3- سيطرة الترجمة على أدب الأطفال خصوصا في بداياته.
4- سيطرة القصة عل كافة ألوان أدب الأطفال الأخرى.
5- الاعتماد الرئيسي على الحكايات الشعبية كمصدر لأدب الطفل، وانتشار الخرافات والمبالغات والخيال.
6- معظم المواد المقدمة للطفل تنمي ثقافة الذاكرة، وتغيب ثقافة الإبداع والابتكار، مع ملاحظة غياب أدب الأطفال في السن المبكرة.
7- يعتمد على التوجيه المباشر في معظمه، وتتظير عليه الأوامر والنواهي.
8- يعتمد أسلوب التسليم والإذعان، لا أسلوب الإقناع والمناقشة.
9- سيطرة الهدف التجاري عليه.[26]

وهناك العديد من الجوائز في العالم العربي في مجال أدب الأطفال، إلا أنها مازالت قليلة وغير مضبوطة زمنيا، منها جائزة الدول التشجيعية في أدب الأطفال بمصر، وكذلك جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمتعلقة بتأليف الكتب ورسوماتها وغيرها من الجوائز المناسباتية.

أدب الأطفال في الجزائر

باعتبار الجزائر جزءا أساسيا من الوطن العربي، فإن جل ما ينطبق على أدب الأطفال في الوطن العربي عموما ينطبق عليها بنسب متباينة، منها أن الجزائر تعاني قصورا في مسألة التأليف المتعلق بالطفل خارج إطار المناهج والمقررات الدراسية.
كذلك الغياب الواضح للجزائر عن المنظمات الدولية والإقليمية، وغياب سياسة ثقافية وطنية للطفل في الجزائر، والمعاناة التي يلاقيها الأدباء والمثقفون في طباعة إنتاجهم المتعلق بأدب الأطفال، مع عدم وجود رقابة حول ما يطبع من مؤلفات للأطفال، رغم ذلك تعود بديات الاهتمام بأدب الأطفال في الجزائر حسب " د.أحمد منور " إلى قبل الاستقلال وتمثلت أساسا فيما كان يقدم ضمن نشاط مدارس جمعية العلماء خاصة، والمدارس الحرة عامة في بعض المناسبات والأعياد الدينية من أشعار وتمثيلات خاصة بتلك المناسبات. أما بعد الاستقلال فقد حاور الكتاب اهتمامهم بهذا الموضوع في حدود منتصف الستينيات، وتبنت كتاباتهم بعض المؤسسات الإعلامية مثل جريدة الشعب التي ظلت وفية لهذا التقليد منذ سنين طويلة،

وكذا المجاهد الأسبوعية ومجلة ألوان وإلى حد ما مجلة الجزائرية، وتنفرد اليوم من بين عشرات العناوين صوت الأحرار بتخصيص ملحق أسبوعي، ولابد من الإشارة إلى التراجع الواضح في الثمانينيات والتسعينيات من قبل الهيئات والمؤسسات، وظهرت المبادرات الخاصة، ولا سيما بعد أن تحررت الصحافة من احتكار الدولة لها، فأنشأ بعض الحفيين مجلات موجهة للأطفال، وعلى هذا لا يمكن القول إننا حققنا شيئا ذا بال في هذا المجال، لأن الجهود مازالت مشتتة والمبادرات فردية وغير دائمة والتشجيع المادي والمعنوي قليل"[27].

أما "يوسف وغليسي" فارجع بدايات أدب الأطفال في الجزائر إلى تلك المقطوعات والأناشيد التي عثر عليها في ديوان " محمد العيد آل خليفة " وديوان همسات وصرخات للشاعر " محمد الأخضر السائحي"، بيد أنها نماذج قليلة ومتفرقة لا تنهض دليلا على وجود متقدم لأدب أطفال جزائري آنذاك أم البداية التقنية الحقيقية فيمكن أن نؤرخ لها بسنة 1982م تاريخ تأسيس قسم منشورات الأطفال على مستوى مديرية النشر بالمؤسسة الوطنية للكتاب[28].

وبداية العناية بأدب الأطفال في الجزائر حسب ما يرى " شريبط أحمد شريبط" كانت قبل الاستقلال، وتمثلت أساسا في نشاط مدارس جمعية العلماء المسلمين، خاصة المدارس الحرة العامة في بعض المناسبات والأعياد الوطنية والدينية، ولعل أقدم نص وصل إلينا من تلك الفترة هو تمثيلية " بلال بن رباح" لمحمد العيد آل خليفة، التي عرضت ونشرت سنة 1938م[29] . ويتجلى في إنتاج محمد لعيد آل خليفة" الموجه للأطفال القيم الخلقية كالصدق في القول والعمل، والشعور بالعزة والكرامة، وعدم الاستكانة للظالم والأمانة والانضباط، فنراه في مواضيع أخرى يلجأ إلى الألغاز بما يذكي عقول الأطفال ويبني مداركهم[30]. واعتبر نجيب بن خيرة الأديب موسى الأحمد نويوات رائدا في لقصص الأطفال في الجزائر[31] .

ويضيف "السعيد بوسقطة" مبدعي أدب الأطفال في الجزائر إلى ثلاثة أصناف فمنهم من يكتب عن إيمان حقيقي بالطفولة والآخر لإظهار تعاطفهم معها وإبراز مقدرتهم على الكتاب للطفولة، أما الثالث من تطاول على هذا النوع من الكتابة منطلقا من غياب أو تغييب النقد العلمي من الساحة الأدبية[32]. ويؤكد" عياش يحياوي" أن ما تم إبداعه للأطفال في الجزائر اتسم بالمباشرة والمواعظ الجافة والنصائح التقريرية على خلاف ما يجب أن يتسم به أدب الأطفال من حداثة في الجملة والفعل والصورة والفكرة على ما نقرأ في أدب المشرق[33] .

وأبدى" د. عبد المالك مرتاض" رأيا آخر في مسألة أدب الأطفال والقراءة والمستوى المعيشي في الجزائر قائلا " إن الأسرة الجزائرية لا تستطيع تخصيص ميزانية لاقتناء كتاب في الشهر خارج إطار الكتب المدرسية والجامعية، إضافة إلى قلة عدد كتابنا، إن عدم الاهتمام بالقراءة مرجعة إلى تقصير الجهات المسؤولة بما فيها من وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية بحيث هذه الأخيرة تفتقر إلى برامج ترغب فيه حب القراءة، كما يخلو من المكتبات[34].

ومن الشعراء المعاصرين الذين اهتموا بالطفل، وكتبوا شعرا به نجد:

محمد الأخضر السائحي في ديوانه " أناشيد النصر"**، ومصطفى محمد الغماري في ديوانه " الفرحة الخضراء"***، وسليمان جوادي في ديوانه " يأتي الربيع"****، ويحيى مسعودي.

وفي الأخير لابد من طرح بعض الملاحظات حول أدب الأطفال عموما وأدب الأطفال في الجزائر على الخصوص، فالملاحظة الأولى تدور حول الأدب المترجم للأطفال ومدى خطورته إذا لم يراقب من هيئة مختصة من باحثين في علم النفس وعلوم التربية وعلم الاجتماع والصحافة وعلم المكتبات واللغة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقوم بعملية الترجمة إلا إذا كان مختصا في الميدان الذي يترجم منه وإليه، بل لا يكفي الاختصاص فقط، بل يجب أن يكون المترجم في المستوى العلمي الذي يؤهله ليس إلى فهم الكتاب المترجم فحسب بل إلى نقله أيضا بأمانة ودقة، وتصبح عملية الترجمة صعبة ومضاعفة مع ترجمة الأعمال الأدبية التي تتطلب فهم روح النص الأدبي ومقصده ومراده، والإحساس بهذا المقصد لنقل الشحنة نفسها التي أراد الكاتب توصيلها إلى القارئ، يضاف إلى هذا إذا تعلق الأمر بترجمة أدبية للأطفال؛ الاهتمام بالمعاني والدلالات اللغوية، وبالآثار النفسية التي تتركها هذه الدلالات في الطفل ونفسيته[35] .

والملاحظة هذه تدل على سيطرة أدب الأطفال المترجم والمقتبس، وما لذلك في بعض الأحيان من أداء سلبي في حياة الطفل الثقافية في الجزائر وفي الوطن العربي، بحيث أن هذه النصوص المترجمة والمقتبسة –دون أي رقابة في جل الأحيان– لا تخدم توجيهات أطفالنا تربويا ولغويا وسلوكيا وفكريا، ذلك لأن هذه النصوص في الغالب تكون قد أعدت خصيصا لفئة من الأطفال يختلفون كل الاختلاف عقائديا وحضاريا عن أطفالنا في العالم العربي[36].

والملاحظة الثانية ما طرحته "سهير محفوظ" في دعوتها إلى ثورة في مفهوم أدب الطفل في عالمنا العربي، بالانتقال به من مجرد أدب تهذيبي، وهي الصفة الغالبة على معظم أدب الأطفال الحالي إلى أدب حقيقي يهدف أولا إلى تسلية الأطفال وإشباع خيالهم ورغباتهم وإدخال البهجة والسرور في نفوسهم. وإن كان هذا لا يمنع البتة من تضمين هذا الأدب المبادئ والأهداف التربوية والتعليمية المطلوب تلقينها للطفل، على أن يتم ذلك في أسلوب شيق وبطريقة غير مباشرة[37] .

أما الملاحظة الثالثة فتتلخص في تخوفات البعض حول أدب الأطفال ودعوى تقلصه وانضماره على المستوى العالمي، وإن كان الواقع المعيش ينفيه، وينفيه أيضا الكثير من المختصين في ثقافة الطفل وأدبهم، فعصر المعلومات والمعرفة لن يطغي أو يلغي أدب الأطفال، وإن كانوا يقسمون أدبيات الأطفال إلى أعمال قصصية وأعمال غير قصصية، وسيكون للأخيرة اليد الطولى، إلا أن الاحتياج إلى أدب الأطفال شعرا ونثرا سيكون أكبر من أي وقت مضى، وخاصة ونحن في عصر تجتاحه الماديات والمعلومات، لأن هذا الأدب يتعامل مع الروحانيات والمعنويات، ولا بد منها لصقل الوجدان وتهذيب النفوس، والمعرفة وحدها لا تكفي، إذ لا يمكن من خلالها غرس القيم واكتساب الأخلاقيات وفرض السلوكات السليمة والسوية على الناس، خاصة وهم بعد أطفال صغار ولم يشبوا على الطري[38]. والملاحظة الرابعة غياب النقد المتخصص بأدب الأطفال في الوطن العربي "بحيث إننا نجد كثيرا من الكتاب يحاولون الكتابة للطفل دون مراعاة أدنى الشروط الضرورية في عملية الكتابة، في ظل غياب نقاد مؤهلين لمتابعة ما يكتب من نصوص موجهة للصغار، فالنقاد عليهم أن يمتلكوا حسا نقديا وثقافة واسعة قصد تحقيق عملية الإبداع الموجهة أصلا للأطفال في شتى مجالات الكتابة[39]. أما الملاحظة الخامسة فمترابطة بشكل بنية الأطفال وتصميمها، لأنها من الأهمية لهذه الفئة سواء على مستوى الغلاف الخارجي أو الصور والرسومات الداخلية، بالإضافة إلى حجم الكتاب وتحديد الفئة العمرية الموجهة إليها، ونلاحظ انتشار الكتب والإصدارات المرتبطة بالكسب المادي ناهيك عن الجهل بأدنى شروط صناعة الكتاب، في ظل تقدم تكنولوجي محمود في هذا المجال.

وبالنسبة للملاحظة الأخيرة والمتعلقة بأدب الأطفال في الجزائر وما يتركه من آثار على الأطفال وحياتهم ومستقبلهم، يتطلب وجود هيئة رقابة أو جمعية أو مركز يعني بأدب الأطفال في الجزائر وإنتاجه وتسويقه، ويكون لها دور الرقابة القانونية والإدارية والعلمية

المرتبطة بقوة القانون حول ما ينتج للأطفال من قصص ومجلات.. الخ. وما يستورد لهم في هذا المجال (قصص، أفلام تليفزيونية، برامج إذاعية، ألعاب..) وفي هذا أكد "د. عبد الله بوجلال" أهمية معرفة تطابق هذه المضامين ومدى ما تتركه من آثار ثقافية ونفسية لدى الطفل الجزائري، وتجاوبها مع عقله وانفعالاته وعواطفه، كلها أمور تتطلب معرفة أشياء كثيرة عن هذا الطفل في مختلف مراحل نموه وتطوره، كما يتطلب الأمر معرفة أبعاد المخططات الثقافية المناهضة لحضارتنا وثقافتنا العربية وتصوراتنا وطموحاتنا المستقبلية[40]. ومن الأهمية التأكيد على إيلاء أدب الأطفال الأهمية المطلوبة، وعلى أن يتولى أمرهم ذوي الاختصاص لا كل من هب ودب وهذا ما أكده "عبد العزيز المقالح" «ومن غريب أمر الطفل في عالمنا النامي، أن المسؤولين عن تعليمه وتربيته، لا يختارون له أنضج الكفاءات، بل أقلها شأنا، والذين يشرفون على الكتابة له في المجلات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية والأدبية، لا يحاولون الاستفادة من كبار الأدباء والشعراء، وإنما من الأميين وأنصاف المتعلمين. وأمام تيارات التشويه الأدبي والمدرسي واللغوي، لابد من تضافر الجهود، واختيار الكفاءات العلمية والأدبية الناضجة، لتتولى الكتابة الأدبية للطفل، في ظل وعي سليم لقدرات الطفل، وفي حدود المفردات التي يتعامل معها سِنيًا، وضمن خطة قومية وإنسانية تستهدف بناء الإنسان»[41]

إن الضبابية التي تكتنف واقع أدب الأطفال في الجزائر مردها الأشياء السالفة الذكر، وغياب سياسة واضحة واقعية في كل ما يتعلق بالطفل الجزائري، وتنميته ثقافيا وتوعيته اجتماعيا ووطنيا. لذا فإن الحل البديل لهذه الصورة لا يمكن أن ينهض به فردا وأفراد كما هو الواقع المعاش، حيث إننا نرى محاولات للكتابة والنشر للأطفال بعضها لا يزال بعيدا كل البعد عن عالم الطفل وبعضها كان مقبولا وسط الفراغ الذي تعيشه المكتبة في هذا المجال، لذا لا بد من إيجاد مؤسسات كبيرة يتبناها رجال مخلصون لا تدفعهم شهوة الربح المادي الصرف والرواج التجاري لمنشورات محددة، بل تحرك وجدانهم وأفكارهم وأقلامهم. هذه المؤسسات تحتاج إلى أهل الاختصاص لكي تخرج أعمالا متميزة هادفة، تأخذ وترتقي بأطفالنا إلى الأفضل.

الهوامش

1- الأخضر السايحي: تاريخ أدب الأطفال في الجزائر، أفكار، تراجم، نصوص منشورات الإتحاد الكتاب الجزائريين ، دار هومة ، الجزائر ،2003، ص 13.

[2] – د. هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، 1988 ، ص 158.

[3] – د. مالك إبراهيم الأحمد: نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر، 1997 ص60.

[4] – محمد حسن بريغش: أدب الأطفال أهدافه وسماته، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1997، ص 62،63،64،65،66.

[5] – د. شعبان عبد العزيز خليفة: دائرة المعارف العربية في علوم الكتب والمكتبات والمعلومات، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ،2002 ،ج4 .

[6] – د. سعد أبو الرضا: النص الأدبي للأطفال أهدافه مصادره وسماته ، دار البشير للنشر ، الأردن 1993، ص 63.

[7] – السعيد بوسقطة: " أدب الأطفال في التجربة الشعرية الجزائرية"(أعمال الملتقى الوطني الثاني-الأدب الجزائري في ميزان النقد)، الجزائر: منشورات جامعة عنابة، 1994م: ص 137.

[8]- د. عبد الباسط بدر: " أدب الأطفال همومه وتطلعاته"، المشكاة، وجدة، المغرب (رمضان) 1410هـ (أبريل) 1999م ،ع 13، ص70.

[9]- د.هادي نعمان الهيتيي: ثقافة الأطفال، ص207.

[10] – أحمد شوقي:، الشوقيات، دار الكتب العربي ،بيروت، لبنان ، د.ت ،ج4 ، ص150.

[11]- ينظر الدكتور محمد الهرفي: في أدب الأطفال دراسة نظرية وتطبيقية، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، 1996، ص49.

[12] -عادل أبو شنب:" أدب الأطفال في سوريا"، الثقافة،وزارة الثقافة، الجزائر، ع27، 1395هـ ،1975م، ص104 ،105.

[13] – د. أحمد زلط: أدب الأطفال بين أحمد شوقي وعثمان جلال،دار النشر للجامعات المصرية ،القاهرة، مصر، 1999 ، ص 11، 12.

[14] – د. أحمد زلط:، أدب الطفل العربي دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل ط2، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 1998م، ص 94.

[15]– د. هدى قناوي: أدب الأطفال، القاهرة: مركز التنمية البشرية، 1990م، ص 246.

[16] - د. أحمد منور: "أدب الأطفال في البلاد العربية"، الشروق اليومي، شركة دار الاستقلال، الجزائر، ع329 5ديسمبر 2001م ،ص 15.

[17] –" ملامح من أدب الأطفال في الإمارات"، الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة ع63 نوفمبر 2002م، ص30.

[18] – تغريد محمد المقدسي: الكتاب الشهري إسهاما فاعل في حقل الكتابة الحديثة، ثقيف للنشر، الرياض، السعودية، م20 ، (ذو القعدة) 1419هـ(أبريل) 1999م، ع3،ص 216.

[19] – شهر زاد العربي: أدب الأطفال ونرجسية الذات، أحوال لمعرفة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، يوليو 2000م ،ع 17،ص 74، 75.

[20] - عبد التواب يوسف: الحرس الوطني، الحرس الوطني السعودي، الرياض، السعودية، (ذو القعدة) 1421هـ فبراير 2001م، ع 224، ص84.

[21] – شريف عبد المجيد: أراء وأفكار في كتابة قصص الأطفال، أمال، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ع 66، 1999م ص69.

[22] - د. عبد العزيز المقالح:، دراسات عن الأدب العربي والطفل العربي "الوجه الضائع"، دار المسيرة ، بيروت، لبنان، 1985، ص 36.

[23] – د. عبد الحميد إبراهيم: " أدب الأطفال من منظور إسلامي"، الأدب الإسلامي، رابطة الأدب الإسلامي العالمية،الرياض ، 1420هـ، ع 22، ص14.

[24] – محمد الظاهر: "أشكال أدب الأطفال قصيدة الطفل" (ندوة أدب الأطفال في الأردن واقع وتطلعات) ، وزارة الثقافة ، الأردن ،1989ص 63.

[25] – محمد انقار: فن قصص الأطفال في المغرب 1974–1979م، كلية الآداب، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس ، 1983م ، ص9 (مخطوط).

[26] – د. مالك إبراهيم الأحمد: نحو من مشروع مجلة رائدة للأطفال ص 64، 65.

[27] – د. أحمد منور: أدب الأطفال في البلاد العربية، الشروق اليومي، ع 239، ص 15.

[28] – يوسف وغليسي: تجربة الكتابة الشعرية للأطفال في الجزائر، أمال، ع 66، ص15.

[29] – شريبط أحمد شريبط: مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين 2001 م، ص 111.

[30] – د. عمر بن قينة : صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث(إعلام وقضايا ومواقف)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1993م، ص 363، 365.

[31] – نجيب بن خيرة: الأديب موسى نويوات حياته وأثاره، الجزائر: منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين 2002م، ص82، 83.

[32] – السعيد بوسقطة: أدب الأطفال في التجربة الشعرية الجزائرية– مرجع سابق، ص 139.

[33] – محمد الأخضر السايحي: تاريخ أدب الأطفال في الجزائر، أفكار، تراجم، نصوص ص 45، عن عياش يحياوي، أدب الأطفال وبوادره في الجزائر، الشعب، الجزائر ع 10228 ، 1414هـ 1993 م.

[34] – د. عبد المالك مرتاض: " حق الطفل في الأدب مغتصبا"، البلاد، الجزائر، ، 15 أكتوبر 2000م، ع 289 ،ص 17

**صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983م.

*** صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1983م.

**** صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.

[35] - شريف عبد المجيد: آراء وأفكار في كتابة قصص الأطفال، الكويت: أمال، (عدد خاص بأدب الأطفال) ،ع66،ص70.

[36] – د. سهير أحمد محفوظ: الخدمة المكتبية العامة للأطفال، الكويت: وكالة المطبوعات، د، ت، ص107.

[37] – عبد التواب يوسف: أطفالنا أو عصر العلم والمعرفة ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ،2002، ص85.

[38] – حسين عبروس : أدب الطفل وفن الكتابة ، دار مدني ، الجزائر 2003 ،ص 40 .

[39] – عبد الله بو جلال :الأطفال والتلفزيون، المجلة الجزائرية للاتصال، جامعة الجزائر ،يناير 1996،ع 13،ص77 .

[40] – محمد حسن بريغش : أطفالنا ماذا عن مستقبلهم ؟ الأمة ، الدوحة ، رجب 1404 ، ع43 ،ص ص 77، 78.

[41] – د.عبد العزيز المقالح: المرجع السابق ص37.